اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (٤) | الآيات [١٩ : ٢٤]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

نستكمل بإذن الله -عز وجل- ما بدأناه من وقفات مع سورة الأعراف، انتهينا المرة الماضية من الآية الثامنة عشر، وتوقفنا عندها. نبدأ بإذن الله -عز وجل- من الآية التاسعة عشر عند قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأعراف ١٩].

تناولنا في المرات الماضية مقدمة عن سورة الأعراف، وتكلمنا عن كيفية سير السياق القرآني في تحذير الأقوام من تكذيب الرسل، وكيفية انتقال السياق مباشرةً إلى الدار الآخرة والتذكير بالإهلاك الدنيوي -قبل الانتقال للدار الآخرة-.

ثم الانتقال إلى مشهد تكريم آدم -عليه السلام- في السماء، ثم لمعصية إبليس وسؤال الله -عز وجل- لإبليس -عليه لعنة الله-، ثم كيف أجاب إبليس. وانتهينا عند آخر مشهد، مشهد الطرد، طرد اللعين، قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾[الأعراف ١٨].

وهنا -في الآية- إشارة إلى أن هناك أناس سوف يتبعون إبليس، أي أنهم سوف يتركون آيات الله -سبحانه وتعالى- ويتبعون إبليس، وهؤلاء الناس كثر. كثرة المتبعين لإبليس أيضًا من الأمور التي تم الإشارة إليها في هذه السورة كثيرًا سواء في قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف ٣]، أو في قوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾[الأعراف ١٠]، أو في الإشارة لامتلاء جهنم -من متبعين إبليس- في قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[الأعراف ١٨] يوحي امتلاء جهنم -نعوذ بالله عز وجل من جهنم- أيضًا بكثرة الذين يسيرون خلف إبليس -عليه لعنة الله-.

والآية التي سوف نبدأ بها اليوم بإذن الله -عز وجل- يقول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾[الأعراف ١٩]. أريد منك تخيل مشهد طرد إبليس -ولله المثل الأعلى-، عندما يجلس شخصين أمامك وتقول لأحدهما اخرج من هنا، ثم في المقام والمشهد نفسهما تلتفت إلى الشخص الآخر وتقول له: "تعالى يا محمد، كن أنت -هنا- بجانبي".

فإكرام آدم في هذه اللحظة -لحظة الطرد- كان أيضًا زيادة غيظ للشيطان، فكان هذا -الإكرام- من الأشياء التي تسببت في غيظ الشيطان وحقده على أبينا آدم -عليه السلام-. وأيضًا هذا من كمال

تكريم آدم؛ لأن مشهد الطرد يليه مباشرةً مشهد الإكرام، فيقول تعالى: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾[الأعراف ١٨] ثم الآية التي تليها يقول تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنَ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾[الأعراف ١٩].

يقول الله -عز وجل- لآدم -عليه السلام-: ﴿ٱسۡكُنَ﴾، والنداء في الآية للدلالة على القرب، فتخيل عندما يقول الله -سبحانه وتعالى- له ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنَ﴾، وهذا النداء يوحي بالقرب. يقول الله -تعالى- له: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنَ﴾، تخيل عندما يخبرك أحدهم بأن تسترح كما في قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنَ﴾، وحتى لا تمل من السكن وحيدًا ﴿ٱسۡكُنَ أَنتَ وَزَوۡجُكَ﴾. قيل في قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنَ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ إن الجنة لا تكتمل بدون الزوجة -هكذا قيل ونحن نصدقهم إن شاء الله-. تخيل أنك تجلس في مكان ومعك زوجتك، وأنتما قمةً في السكن، فتريدان شيء تأكلانه، يقول تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنَ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾.

فُطِرَ الإنسان على حب الحرية وعلى أن يكون لديه اختيارات كثيرة، فعندما يُطلب منه شيء أو يُنهى عن شيء، فيظل هذا الشيء يحيك في صدره حتى لو كان لا يريده، ويسمون هذه القاعدة "الممنوع مرغوب". فقبل أن يقول الله -سبحانه وتعالى- لهما: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ قال لهما: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنَ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾.

وأيضًا في الدعوة يكون الكلام عن كثرة المباحات قبل الكلام عن المحرمات؛ لأن المحرمات معدودات؛ فالأصل في الأشياء الإباحة والحِل فيما أنزله الله -عز وجل- للناس. فدائمًا نتكلم عن كثرة نعم الله -عز وجل- على العباد، وكثرة المباحات التي أعطاها الله -عز وجل- للناس، ثم هناك أشياء معينة وأصناف معينة هي التي تكون محرمة. أيضًا هنا في خطاب الله -عزَّ وجل- لآدم -عليه السلام- قال له الجنة كلها مباحة: ﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾؛ حتى يُكسَر ما بداخله من قضية أن الممنوع مرغوب، ورغبته في اشتهاء الممنوع. فقال الله -سبحانه وتعالى- له: لك في الحلال غُنية عن الحرام.

قال تعالى: ﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قال بعض العلماء أن هذا كان نوعًا من التدريب لآدم -عليه السلام- قبل النزول إلى الأرض؛ لأن من أول خلق آدم الله -عز وجل- قال ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾[البقرة ٣٠].

أريد منكم تركيز أذهانكم معي، فدرس اليوم دسم قليلًا؛ لأنه يتكلم عن العداوة الأصلية بين آدم وبين الشيطان، وبالتالي من المفترض أن نستمر نحن في هذه العداوة. وتشرح الآيات مداخل الشيطان لإيقاع بني آدم، فنحن نريد أن نكون منتبهين؛ لأن الله -عز وجل- أمرنا أن نتخذه عدوًا، نحن عندنا أمر من الله -سبحانه وتعالى- ألا نتعامل في الحياة بلا مبالاة؛ كأنه لا يوجد شيطان. هناك أناس تتعامل كأن الشيطان غير موجود، لا بل الشيطان عدو لبني آدم متربصٌ بهم، وأقسم وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الأعراف ١٦]، وقال: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾[الأعراف ١٧].

فنريد أن نرى المشهد الأول للمعصية الأولى وكيف تمت؛ حتى لا نكرر هذه التجربة. هناك أناس تصمم أن تأكل من الشجرة؛ حتى تصدق وتتأكد أن أوامر الله -عز وجل- كانت صحيحة! ويصممون على السير لنهاية الطريق وهم يعصون الله -عز وجل-. تجربة آدم -عليه السلام- كانت التجربة الأولى بالتكليف -ولم يكن يعلم-، فهذه التجربة قصها الله -عز وجل- علينا كثيرًا؛ حتى لا نفعل مثل ما فعل أبينا آدم -عليه السلام-.

قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[الأعراف ١٩]، قال بعض العلماء -كما قلنا- أن هذا كان نوع من التدريب لآدم لتقوية ملَكَات الامتناع، أي تتعود أن هناك شيء تُمنع منه.

وكما قلنا فالممنوع عن الإنسان دائمًا مرغوب فيه، حتى قال بعضهم أن ذلك متأصل في سلوك النفس الإنسانية، فلو قيل لشخص ستتكلم طوال اليوم كما تشاء، لكنك ممنوع من الحديث من الساعة الثانية للساعة الثالثة صباحًا، هو غالبًا في هذا الوقت يكون نائمًا، لكن عندما يؤمر بذلك يظل متوترًا، ويشعر أن الحديث كله سيخرج في تلك الساعة الممنوع فيها من الكلام، ويشعر أنه يقوم بشيءٍ عظيم، ويسهر هذا اليوم تحديدًا -الذي مُنع فيه من الحديث-، ويظل يقاوم، وينظر للساعة للتحقق من الوقت، وينتظر انقضاء العشر دقائق الأخيرة ليتحدث بحرية. قبل أن يؤمر بذلك الأمر لم يكن الموضوع -في الأصل- مهمًا له، لكن حينما أُمِرَ أصبح الشيطان -ونفسه- يهولان له هذا الأمر، ويشعر أن هذا النهي -من الساعة الثانية للثالثة- بالتأكيد سيحدث شيء لو تكلم؛ فيضخم له الشيطان هذا الأمر، قد يكون الأمرُ عاديًا، وهذا هو أول سبيل من سبل الشيطان -كما سنرى- وهو قضية التزيين.

قال ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، الله -عز وجل- هو الذي خلق الإنسان، وقال ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[الملك ١٤]، فالله -عز وجل- يعلم مدى ضعف الإنسان، ويعلم ما هي نقاط ضعف هذا الإنسان، فعندما تأتينا الأوامر من الملك -سبحانه وتعالى- لا بد أن ننفذها كما أمرنا ربنا. فهنا ربنا -سبحانه وتعالى- لم يقل [ولا تأكلا]، ولكن قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[الأعراف ١٩].

* لماذا قال ربنا -سبحانه وتعالى- ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾؟

- لأن الإنسان ضعيف، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء ٢٨]، الإنسان فيه ضعف. فكما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في صحيح مسلم: (لما صور الله -عزّ وجلّ- آدم في الجنة، وتركه ما شاء أن يتركه، جعل إبليس يطيف به، فعلم أنّه أجوف؛ فعَلِمَ أنه خُلِقَ خلقًا لا يتمالك)[1]. أي عندما عَرف الشيطان أن سيدنا آدم أجوف -قبل أن تنفخ فيه الروح- عرف أنه خُلق خلقًا لا يتمالك -كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم في نص الحديث-، وقال النووي: أي لا يتمالك أمام الشهوات. فطالما كان الإنسان بعيدًا عن الشهوات تكون لديه قوة ومناعة، لكن كلما ازداد قربه من تلك الشهوات -باختياره لا ابتلاء- قلت تلك المناعة وازداد ضعفه، فالأولى بالإنسان أن يكون دائمًا بعيدًا عن الشهوات.

لذلك قال الله -سبحانه وتعالى- له: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[الأعراف ١٩]، حتى لا تضعف؛ لأنك لو اقتربت ثم أمرتك بالابتعاد بعد القرب ونهيتك عن الأكل حينها يكون ذلك الأمر شديدًا على النفس، لذلك دائمًا ما تكون الوقاية خير من العلاج. وسنرى كيفية ارتباط آخر سورة الأعراف بهذه القصة -قصة آدم عليه السلام-، وكيفية ارتباط الأوامر الختامية -التي تُختَم بها هذه السورة- والوحدة الواحدة في هذه السورة بإشارات لهذه القصة.

فقال رَبُنا سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، نريد أن نركز في الآيات هنا على أسماء الإشارة؛ لأنها مهمة جدًا معنا اليوم. ﴿هَـٰذِهِ﴾ اسم إشارة للمفرد المؤنث القريب، أي أنه -آدم عليه السلام- نُهي عن شجرة واحدة، والجنة ممتلئة بالأشجار. وإن كان بعضهم -قلة من المفسرين- قال إنه نُهي عن

---

[1] [عن أنس بن مالك:] لَمّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ في الجَنَّةِ تَرَكَهُ ما شاءَ اللَّهُ أنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إبْلِيسُ يُطِيفُ به، يَنْظُرُ ما هُوَ، فَلَمّا رَآهُ أجْوَفَ عَرَفَ أنَّه خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمالَكُ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٦١١ • [صحيح]

جنس معين من الشجر، أي ليست شجرة واحدة بعينها، بل مجموعة من الشجر يعود لجنس واحد من الشجر، أي نُهي عن ثمرة معينة، أيًا يكن...

﴿هَٰذِهِ﴾ اسم إشارة للقريب، وأتت الإشارة هنا للقريب حتى يعلمها جيدًا؛ كيلا يقول: "يا رب أكلت من الشجرة ولم أنتبه أيهم نُهيت عنها، كنت أظن أن المنهي عنها الشجرة المجاورة لها"، فالإشارة هنا لتحديد أنها هي تلك الشجرة بعينها، هي التي مُنعت منها. أحيانًا يتحايل الإنسان على نفسه –لا على الله، فهو لا يستطيع أن يتحايل على الله–، فيقول: "أنا لم أنتبه، لم أكن أعلم أن هذا تحديدًا هو المحرم، أنا كنت أعتقد أنه....". **لكن الحرام واضح**، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات، فمن أتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه)[٢].

هنا –في الآية– الحرام واضح، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي تلك الشجرة الواضحة أمامك؛ لأنك إن اقتربت ستَضْعُف وستأكل منها، فامتنع من البداية عن الاقتراب. مثلما قلنا من قبل كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يأمر بعض الصحابة بكتمان بعض المشاعر التي من الممكن ألا يتحكم الإنسان فيها، كالغضب، قال –صلى الله عليه وسلم– له: (لا تغضب)[٣]، لكن الغضب من الممكن أن يحدث لا إراديًا؛ فكيف للإنسان ألا يشعر به؟ إذًا لا تضع نفسك في المواطن التي تجلب لك الغضب.

إذًا أحيانًا يكون الأمر بأن تبتعد عن المواطن التي تجعلك تقع في المعصية، فأنت لن تذهب وتجلس في مكان به معاصي وتظل تشاهد وتزداد الشهوة وتستعر، ثم تقول: "أنا لا أستطيع كبح جماح نفسي!"، أنت من فعلت ذلك بنفسك، واقتربت من النار.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بمجرد الاقتراب يصبحا ظالمين، الفاء هنا للترتيب، أي دلت على أن الإنسان يقع في الظلم بمجرد الاقتراب. يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن غالبًا من يقترب –من المعاصي– يسقط فيها. ينبغي علينا أن نضع لافتة

---

[٢] [عن النعمان بن بشير:] سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: وأَهْوَى النُّعْمانُ بإصْبَعَيْهِ إلى أُذُنَيْهِ، إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ، وبيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وعِرْضِهِ، ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ وقَعَ في الحَرامِ، كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فيه، ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنَّ حِمَى اللهِ مَحارِمُهُ، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٥٩٩ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

[٣] [عن أبي هريرة:] أنَّ رَجُلًا قالَ للنبيِّ ﷺ: أوْصِنِي، قالَ: لا تَغْضَبْ فَرَدَّدَ مِرارًا، قالَ: لا تَغْضَبْ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦١١٦ • [صحيح]

بمسافات قبل المعصية مكتوبًا عليها: "ممنوع الاقتراب أو التصوير"، مع رسم علامة جمجمة وعظمتين، ستنفجر بك –ستدمرك– تلك المعصية إن اقتربت!

فالإنسان يزداد بُعده عن الشيء على قدر خطورته، فمثلًا لو هناك مكان به كهرباء ويُخشى أن يصاب أحدهم بصدمة كهربائية، تجد الناس وضعوا معدن –أو غيره–، ثم يضعون سورًا صغيرًا كي لا يقترب أحد من هذا المكان. تخيل لو أن مكان به ألغام من الممكن أن تنفجر، أو تخيل أن هناك قنبلة نووية؛ فعلى قدر خطورة الشيء يكون بُعد اللافتة الموضوعة للتحذير منه، فمثلا تجد لافتة تخبرك بأنه على بُعد ٥٠ كم يوجد مكان خطر.

فالذنب أحرى بالتحذير من قبله لأنه أخطر؛ ولأنه تسبب في هبوط آدم من الجنة، وتسبب في هزيمة أُحُد، وتسبب في إهلاك الأقوام، فإذا كان الذنب بهذه الخطورة! فكلما أيقنت بخطورته ابتعدت عنه. الجريء على الذنب لا يعلم خطورته؛ فيقول: "أنتم متشددون، لم تفعلون ذلك؟" الإجابة هي أننا نفعل ذلك لأننا نخاف!.

فالقضية ليست تشددًا، بل إنك تخاف على نفسك من الوقوع؛ أنا أعلم ضعفي جيدًا، أنا لا أحتاج أن يشرح لي أحد أن هذا الذنب ليس بتلك الخطورة! أنا أعلم ضعفي، لطالما وقعت وأذنبت، فما الذي يجعلني أقترب؟ لماذا أُضحِّي بنفسي؟ من يريد أن يقترب فليقترب، لكن كيف لي أن أضحِّي بديني؟ الأمر عندي أخطر من ذلك. من كان دينه عظيمًا عنده ويخاف من الذنب يبتعد عنه، وتجده يسأل كثيرًا في نقاط المكروه والحرام، ويطلب –من الفقيه أو العالم– أن يرسم له خطًا فاصلًا بين المكروه والحرام، فهو لا يجادل في تلك المنطقة –الواقعة بين المكروه والمحرم– كثيرًا، بل يبتعد.

فالأمر والنهي الأولان كانا لآدم –عليه السلام– بعدم الاقتراب، يقول تعالى: : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي تكونا من الذين ظلموا أنفسهم. وقد قلنا من قبل –في السورة نفسها–: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[الأعراف ٩]، هنا في الآية : ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأعراف ١٩]؛ لأنه يظلم نفسه، ويُضيع الخير الذي يعيش فيه.

أول ما يأتي النَهْي –عن الأكل من الشجرة– فبعدها وسوس لهما الشيطان كما في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[الأعراف ٢٠]. يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ* فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف ١٩–٢٠]، وكما قلنا إن الشيطان جالس منتظر أي أمر أو نهي كي

يوسوس للإنسان. قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه كلها)[٤]، أراد أن يُسْلم – لم يسلم بعد– فأتاه الشيطان، أراد أن يُهاجر فأتاه الشيطان، أراد أن يجاهد فأتاه الشيطان.

يأتي لك الشيطان وأنت تفكر في عمل الطاعة، يأتي لك ويبدأ وسوسته في بداية قيامك بأي طاعة، – على سبيل المثال– عندما يحين وقت إيقاظ المنبه لك لكي تستيقظ لتأدية صلاة الفجر، بل وحتى قبل خلودك للنوم. يقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (يعقد الشيطان على قافية أحدكم ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فارقد)[٥]، انظر متى يبدأ الشيطان في الاستعداد ليثنيك عن الطاعة!، فيبدأ في تثبيطك عن الاستيقاظ لقيام الليل وصلاة الفجر وأنت ذاهب للنوم، فلو ذهبت للنوم في الساعة العاشرة ونويت الاستيقاظ في الساعة الثالثة، الشيطان لا يأتي لتثبيطك في الساعة الثالثة، بل يبدأ من الساعة العاشرة حتى لا تستيقظ للصلاة.

فالشيطان دائمًا ما يستعد باكرًا؛ لذلك أول ما أتى أمر من الله لسيدنا آدم –عليه السلام– ولم يكن فكر في الأمر أو النهي بعد ولا ماذا سيفعل فيهما، أتى له الشيطان مباشرةً. تدل الفاء على السرعة في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

الفعل وسوس فعل رباعي مكرر؛ أي أن هذا الفعل يتكرر، فالشيطان لا يأتي مرة واحدة يخبرك فيها بأن تفعل تلك المعصية أو ألا تصلي الفجر، فتقول له: "لا، سأقوم للصلاة"، فيقول لك:" أنا آسف سأذهب الآن!". بل إن الشيطان لا يمل؛ يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (فإذا قام وذكر الله انحلت عُقدة...) أي إن قام شخص من النوم وذكر الله، لكن الشيطان لا زال معه لم يتركه، (فإذا قام بعد أن ذكر الله وتوضأ انْحلَّت عُقدة)[٦] من الممكن أن يذكر شخص الله، ويتوضأ، ثم ينام مرة أخرى!

---

[٤] [عن سبرة بن الفاكه المخزومي الأسدي:] إنَّ الشيطانَ قَعَدَ لِابنِ آدمَ بأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لهُ بطَرِيقِ الإسلامِ فقال: تُسْلِمُ وتَذَرُ دِينَكَ ودِينَ آبائِكَ وآباءِ آبائِكَ؟ ! فعَصاهُ فأسلمَ، ثُمَّ قَعَدَ لهُ بطَرِيقِ الهِجْرَةِ: فقال: تُهاجِرُ وتَدَعُ أرْضَكَ وسَماءَكَ وإنَّما مَثَلُ المُهاجِرِ كَمَثَلِ الفَرَسِ في الطِّوَلِ ! فعَصاهُ فَهاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لهُ بطَرِيقِ الجِهادِ فقال: تُجاهِدُ فهوَ جَهْدُ النَّفْسِ والمالِ، فتُقاتِلُ فتُقْتَلُ فتُنْكَحُ المرأةُ ويُقْسَمُ المالُ؟ ! فعَصاهُ فجاهَدَ، فمَنْ فعلَ ذلكَ كانَ حَقًّا على اللهِ أنْ يُدْخِلَهُ الجنةَ، ومَنْ قُتِلَ كانَ حَقًّا على اللهِ أنْ يُدْخِلَهُ الجنةَ، وإنْ غَرِقَ كانَ حَقًّا على اللهِ أنْ يُدْخِلَهُ الجنةَ، وإنْ وقَصَتْهُ دابَّتُهُ كانَ حَقًّا على اللهِ أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ١٦٥٢ • صحيح

[٥] [عن أبي هريرة:] أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ، قالَ: يَعْقِدُ الشَّيْطانُ على قافِيَةِ رَأْسِ أحَدِكُمْ إذا هو نامَ ثَلاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ مَكانَها: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فارْقُدْ، فإنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ صَلّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّها، فأصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وإلّا أصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٢٦٩ • [صحيح]

[٦] سبق تخريجه

تعلمون ذلك بالطبع، يتكرر ذلك كثيرًا. يوسوس الشيطان للإنسان –حتى بعد الوضوء– فيقول: " استرح دقيقتين ونصف فقط، لا بأس في ذلك لقد فعلتها كثيرًا واستيقظت بعدها، هل يعقل أن تنام بعد أن توضأت؟". **فالشيطان لا ييأس**. قال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ﴾، ويقال إن الوسوسة هي صوت الحُلي، ذلك الصوت الخفي غير المزعج المتكرر المحبب إلى النفس.

((إذًا فالمعركة مع الشيطان دائمًا تكون معركة صبر ومصابرة وثبات))

الشيطان يعتمد على أنك أجوف من داخلك وبك ضعف فيستغله ويُداعب هذا الضعف، هناك أزرار معينة بداخلك يعرف الشيطان أنه لو ضغط عليها ستضعف، فيدرسك جيدًا، فمن البداية يجب عليك الابتعاد عن مواطن هذا الضعف.

لذلك قال الله تعالى في ختام سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف ٢٠١]. فعندما يطوف الشيطان بالإنسان ليقرر من أين سيدخل له، ويبدأ في أن يمس الشيطان هذا الإنسان فيقوم –الشخص التقي– مباشرةً ينتفض ويتذكر الله –عز وجل– حتى يصرف هذا الشيطان، لكن من يستمع إلى الوسوسة ويصغي إليها غالبًا سيقع. لذلك أمر الله –عز وجل– المتقين في ختام السورة ألا يصغوا إلى الوسوسة، ولكن يصغوا إلى القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف ٢٠٤]، أي عندما تأتي الوسوسة أستمع إلى القرآن؛ لأذكِّر نفسي بآيات الله؛ حتى لا أستمع إلى تلك الوسوسة. هناك من إذا وسوس له الشيطان يستمع له وينصت ويركز ويطبق ما وُسوِسَ له به بالحرف، أما إذا جاءه القرآن لا يفكر، يجب أن يكون الوضع عكس ذلك.

يقول تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا﴾[الأعراف ٢٠]، تدل اللام هنا على التخصيص؛ وهذا لأن الشيطان يدخل للمرء من مدخله الخاص به، فكما قلنا يدرس الشيطانُ الأشخاصَ ونقاطَ ضعفهم. فمثلًا هناك من نقطة ضعفه النساء، وهناك من نقطة ضعفه الشهرة، وهناك من نقطة ضعفه المال، فوسوسة الشيطان خاصة بكل شخص حسب ضعفه. إذًا فالشيطان لا يغوي الكل بالشيء نفسه، بل يدخل لكل شخص من مدخله الخاص، حتى وإن كان هذا المدخل هو حب الدين! فلا ضير في الوسوسة حتى وإن كان هذا الشخص محبًا للدين، سيدخل له من هذا الباب أيضًا.

فقد حاول شياطين الإنس في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يضلوه -صلى الله عليه وسلم وحاشاه أن يضل-، فهو لم يقع -صلى الله عليه وسلم-، وأخبرنا الله -عز وجل- أنه حفظ النبي -صلى الله عليه وسلم-. وغالبًا ما كان مدخل تلك المحاولات هو الدين؛ فيخبروه بأن يطرد الضعفاء لكي يسلموا هم، بحجة أنهم لا يستطيعون الجلوس معهم -الضعفاء-، فلو أنه -صلى الله عليه وسلم- طرد الضعفاء سيقبلون على الدين، وهذه أمنية النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يؤمن الناس. إذًا فيدخل شيطان الإنس أو الجن للشخص من مدخله الخاص.

﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إذًا إن أُمِر الإنسان بشيءأو نهي عن شيء يأتي له الشيطان فيوسوس له، وتكون تلك الوسوسة صوت خفي متكرر محبب إلى النفس لا يمل، ومن نقطة ضعفك الخاصة.

** هناك نقطة مهمة جدا وهي أن الشيطان ليس غرضه المعصية فقط، بل غرضه أن يتدنى بالإنسان إلى أسفل سافلين؛ فهو -الشيطان- عال الهمة. وتكلمنا في تعلم علو الهمّة من الشيطان في الدرس السابق، حيث طلب الشيطانُ الإنظار إلى يوم البعث لكيلا يفوته بشريٌ واحد، يبدأ بالوسوسة مع ابن آدم كلهم من لحظة ولادتهم ولا ينتظر مرحلة البلوغ، ويقعد على طرق الإنسان كلها -كما في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أطرقه كلها)[٧]، إذًا فالشيطان لديه علو همة. هناك شخص عندما يدعو الناس مثلًا إلى الدين أو الالتزام يرضى بالقليل مما يبدر منهم، وهناك من يدعو الناس ويريد أن يعلو بهم إلى أعلى الدرجات، كذلك الشيطان، يريد أن يتدنى بالناس إلى أسفل سافلين.

((فهو لا يريد من الإنسان اقتراف المعاصي، بل يريد أن يرديه إلى الدرك الأسفل))

- أريدكم أن تركزوا أذهانكم معي هنا، يقول تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾، سنتناول أولًا الخصائص اللغوية التي في الآية، وأعتذر إن كان الجانب اللغوي في أثناء التفسير يضايقكم.

قال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا﴾، اختلف العلماء في ماهية اللام في ﴿لِيُبۡدِيَ﴾:

- فقالوا لو عرف الشيطان ما سيحدث أو توقع ما سيحدث مسبقًا، فتكون هذه اللام هي لام التعليل؛ لأنه قصد إظهار السوءات وعلم بحدوث ذلك أو توقعه.

[٧] سبق تخريجه

- وقال البعض بأن الشيطان لم يكن يعرف الذي سيحدث؛ فسموها لام العاقبة، أي أن يفعل أحدهم شيئًا يؤدي إلى عاقبة معينة هو لم يكن على دراية بها.

مثل فرعون في الآية الكريمة: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾[القصص ٨]، فعندما ألتقط فرعونُ سيدنا موسى -عليه سلام- لم يكن يعرف أن سيدنا موسى -عليه السلام- سيكون له عدوا وحَزَنا؛ فقد قالت له زوجته: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾[القصص ٩]. إذًا فهو عندما التقط سيدنا موسى لم يكن يتعمد أن يكون موسى عليه السلام عدوًا له وحَزَنًا، فسموا هذه اللام لام العاقبة؛ لأن مآل فعل فرعون كان وبالًا عليه.

فقالوا هنا -في قوله ﴿لِيُبۡدِيَ﴾- لو أن الشيطان لم يكن يعلم أن سوءاتهما ستبدو لهما فهذه لام العاقبة، وإذا كان على علم بما سيحدث ومتوقع له فهي لام التعليل.

- وأصر بعض العلماء أنها لام التعليل، واستدل على ذلك بأنه حتى لو لم يعلم الشيطان المشكلة التي ستحدث تحديدًا، لكنه بالتأكيد موقن أنه طالما نهى الله -جل وعلا- عن شيء ففيه مفسدة إذا فُعِل. فقيل إن الشيطان موقن أنه ستحدث مفسدة بعصيان الله -عز وجل-.

سواءً كانت اللام للعاقبة أو للتعليل -وأنا أميل إلى أنها للتعليل-، فوسوسة الشيطان لسيدنا آدم وزوجه كانت لكي يُظهر ﴿مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾[الأعراف ٢٠].

اختلف المفسرون في كينونة السوءة، هل كانت حسية أم معنوية -حب المعصية-؟

- واستند الكثير من المفسرين الذين قالوا أن السوءة حسية إلى بعض الآثار القوية عن السلف في الإسرائيليات، وقالوا بأن السَوءة كانت حسية لآدم عليه السلام وحواء، وكانت مُغطاة بنور أو بأظفار أو بغير ذلك، وهم لم يدركوا ذلك بعد، وشبهوها بالطفل الصغير الذي لا يشعر بسَوءته ولا يدرك ماهيتها، فلما وسوس لهما الشيطان سقط هذا الغطاء عن سوءاتهما الحسية، وهذا ما كان يريده الشيطانُ.
- وقال البعض إن السوءة معنوية، وهي ظهور حب المعصية.

أيًا يكن هذا ما حدث مع سيدنا آدم، أما نحن فماذا يريد الشيطان منا؟ وكيف يوسوس الشيطان لنا حتى يبدي لنا ما ووري عنا من سوءاتنا؟ كيف يفعل الشيطان ذلك معنا؟

نريد أن نعيش بهذه الآيات في حياتنا. أؤكد دائمًا على هذا المعنى أنه في داخل كل نفس هناك فجور وهناك تقوى، والإنسان من الممكن ألا يكون على دراية بالفجور الذي بداخله.

فتجد مثلًا شابًا أو فتاة في المرحلة الثانوية أو الإعدادية أو الجامعية بهما نوعًا من الطيبة والسذاجة ولا يعرفان المعاصي. فتجد الشاب في بدايات المرحلة الثانوية أو الجامعية طيب لا علاقة له بالجنس الآخر لا يفكر في معاصٍ معينة، فإذا دخل الجامعة انظر له بعد ثلاث سنوات أو أربع وانظر إلى التحول الذي يحدث له، ستجد شكله قد تغير، وشعره قد تغير، ولبسه قد تغير، وطريقة حديثه قد تغيرت، كل شيء فيه تغير. أين كان كل هذا التغير؟ كان هذا كله موجودًا بداخله؛ لكن ظهر هذا كله بسبب البيئة التي وُضع فيها، فأظهرت هذا الفجور.

كان لي أحد أصدقائي الذين كنت أعرفهم، وكان شخصًا طيبًا جدًا، وسافر لدولة أوروبية ما، ورجع – معاذ الله– في قمة الجرأة، أنا تعجبت. فلان! أصبح عنده جرأة! يتكلم عن الزنا كأنه أمر عادي! كيف ظهر هذا الفجور؟ كان هذا الفجور داخل النفس، **ودور الشيطان إظهار هذا الفجور الذي داخلنا**، بوضعك في بيئة معينة تعين على إظهاره.

فقد تجد فتاة طيبة القلب –من الريف مثلًا– حيية تميل إلى السِتر تستحي؛ تجدها عند بداية دخول الجامعة تجلس بحياء بينها وبين أي ولد مسافة عشرين مترًا، ثم انظر لها بعد ثلاث سنوات أو أربع في الجامعة، تجد صوتها مرتفع جدًا، وتنادي على الرجال دون خجل أو حياء، ولو ذهبت إليها لتخبرها بأن هذا خطأ تقول لك أنه لم يحدث شيء ليكون هذا الفعل خطأ. كيف حدث هذا التغيير لها؟! كان هذا كله داخلها، ووضعها الشيطان في بيئة أظهرته.

فالشيطان لا يريدك أن تعصي الله فقط، بل يريد أن يُخرج الفجور الذي داخلك؛ حتى لا تكون المعصية لحظة عابرة، بل تتحول إلى طبع وخُلُق مستمر وشهوة مستعرة. وهذا ما يريده الشيطان –استعار الشهوات–؛ لذلك المشكلة ليست في فعل المعصية، بل المصيبة في ظهور السَوءة واستعار الشهوة، وتحول هذه المعصية إلى أحلام يقظة مستمرة في الذهن تلك هي المصيبة.

لذلك حين يقارن العلماء بين الذي لم يرتكب معاصٍ نهائيًا وظل طوال عمره على طاعة والشخص الذي ارتكب المعاصي وتاب من حيث أيهما أفضل، فيقولون إن من ارتكب المعاصي وتاب تتحول سيئاته تلك إلى حسنات، فتزيد حسناته –والعبرة بمن صدق فيهما–.

لكن الشخص الذي ارتكب معصية ثم تاب منها -وكلنا هذا الشخص- من المشكلات التي تحدث له -كلا الفريقان لديهما مشكلة ما- آثار هذا الذنب في صدره، حيث يظل يجاهد نفسه دائمًا، يظل الأمر في صدره، ويجاهدها دائمًا؛ فلا بد أن يكون هذا الشخص على حذر؛ حتى يتخلص من هذه الشهوة.

وهناك فرق بين التوبة من الذنب والتخلص من آثار هذا الذنب -وسنتكلم عن هذا لاحقًا-، فالشخص من الممكن أن يتوب لكن تظل آثار المعصية عليه. ويحتاج إلى أن يدفع ثمنًا للتخلص من أثر الذنب، مثل الذي يتعاطى المخدرات ويتوب عند وفاة صاحبه، أو عند استماعه إلى درس وعظ، لكن ما زالت المخدرات في دمه، ويحتاج إلى شهور -وقد يصل الأمر إلى سنة- ليتخلص تمامًا من أثر المخدر، تحتاج هذه الفترة -التي لا يزال المخدر في دمه- إلى مجاهدة.

فالشيطان لا يريد منك أن تذنب فقط، بل يريد أن يغير أخلاقك وطموحاتك وهمومك وشهواتك، بعد ما كنت تفكر في كيفية نصر الدين قبل أن تنام أصبحت تفكر في كيفية عمل معصية -في أحلام اليقظة-، فهو يريد إخراج فجور نفسك. فتستغرب نفسك ولا تفهم ما هو سبب تغير تفكيرك، وهذا هو معنى ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ فقد كانت تلك السوءة مستورة عنك، وجاء الشيطان ليكشفها بخطواته.

فالشخص الذي لا يعرف أبدًا بوجود قنوات وأفلام وفيديوهات خبيثة يبدأ الشيطان في الإيقاع به، فيبدأ هذا الشخص في اكتشاف هذه الشهوة التي بداخله، ثم تبدأ هذه الشهوة تستعر، ثم يجاهد نفسه ليتخلص منها. فدور الشيطان ليس فقط أن يوسوس لك لتفعل المعصية، بل يريد الشيطان أن يطمئن أنه حتى وإن تبت عن هذا الذنب فهناك دائمًا مدخل لإيقاعك فيه مرة أخرى.

يقول تعالى: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾، أي أنهما لم يكونا يعلمان بوجود هذه السوءات. يقول تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ...﴾ فبدأ الشيطان بالوسوسة، حدد هدفه، وهو تغيير الشخص وإظهار شيء داخلي كان خفيًا به -السوءة-، ثم بدأ في التنفيذ. يقول تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ عندما يذكر الله لنا في القرآن كلام الشيطان، إذًا فيجب أن ندرس هذا كلام جيدًا؛ لأن كلامه هذا يدل على أساليبه الشيطانية لإيقاع الناس.

قال بعض العلماء إننا نحتاج إلى ربط قصص القرآن ببعضها البعض حتى نفهم هذه الجملة، وقالوا إن أول جملة قالها الشيطان لآدم هي التي في سورة طه وليست التي في سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه ١٢٠].

أما الجملة الثانية فهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[الأعراف ٢٠]، وبتجميع قَصص القرآن نستطيع فهم أحداث الموقف.

نبدأ بتناول الآية التي في سورة طه.

كما قلنا إن الشيطان لا يأمرك بوضوح وطريقة مباشرة : "افعل تلك المعصية"، -فعلى سبيل المثال- هو لا يقول: "انظر إلى تلك الفتاة"، فترفض، فيصر على كلامه، ويقول: "لا انظر!"؛ لأنه لو فعل ذلك معك سيستثير الحمية داخلك لتعرض عن تلك المعصية قائلًا: "والله لن أنظر! "

لكن ما يفعله الشيطان هو أن يقول: "ما هذا الذي هناك؟ لا أقصد تلك الفتاة بالطبع، بل الشجرة التي خلفها، سبحان الله!"، أي أنه لا يقول: انظر إلى الفتاة بوضوح، لكن أنت إذا نظرت، فأنت من فعلت ذلك بإرادتك، فهو لم يأمرك بالنظر إلى الفتاة!

لا يقول الشيطان لك "افعل المعصية" بل يهيئها لك في صورة استفهام كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه ١٢٠] كأنه يقول "لو أنك لا تريد أن أدلك فأنت حر، أنا كنت أريد أن أعلمك فقط، حيث يبدو أنك لم تلبث هنا كثيرًا؛ فلا تعلم مكان تلك الشجرة". يقول تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، لم يقل الله تعالى ولا تقربا من [شجرة الخلد]، بل الشيطان هو من سماها شجرة الخلد، إذًا أول ما فعله الشيطان هو أنه بدل اسم الشجرة –**تبديل للمصطلحات**–.

إذًا يبدل الشيطان اسم المعصية، فلا يسمي الزنا باسمه ولا يسمي الربا باسمه، لأن تلك المعاصي لو ظلت تسمى بالمصطلح الأصلي نفسه ستكون مبغَّضة إلى النفس؛ لذلك أخطر شيء هو اللعب بالمصطلحات، كتسمية الفجور حرية؛ مستغلًا دافع الفجور المزروع بداخل النفس البشرية كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[القيامة ٥].

كنت أتكلم مع أحد الشباب في بعض القضايا الإلحادية، فقال لي: "من لا يملك نضجًا فكريًا ليس عليه قراءة هذا الكلام"، فقلت له: "هذا ليس نضجًا فكريًا، بل ضلال! يجب أن نسمي الأشياء بمسمياتها الأصلية".

لذلك أهم خطوة للرجوع عن المعصية هي استعمال **المصطلحات القرآنية** كمؤمن ومنافق وكافر وفاسق ومعصية وحرام وحلال...، فعلينا الابتعاد عن تسمية الأشياء بغير مسمياتها.

فأول ما فعله الشيطان أنه غير اسم الشجرة، وعندما فعل ذلك يا ترى ماذا سماها؟ هل أسماها شجرة الحنظل مثلًا؟ أو سماها شجرة المر؟ أو شجرة العلقم؟ بل اختار اسما محببًا للنفس البشرية ((شجرة الخلد))؛ كتسمية الربا ((فوائد))، فإذا أردت أن تستفيد فأهلًا بك، وإن لم ترد فلك كامل الحرية، فتظن أنك لو أردت أن تستفيد عليك أن تتعامل بالربا. لماذا اختار الشيطان أن يسمي الشجرة شجرة (الخلد)؟

كما قلنا إن الشيطان درس سيدنا آدم وظل يطيف به، وعلم أنه أجوف، والأجوف دائمًا يحتاج إلى من يسد هذا النقص –الجوف–. لذلك الله –سبحانه وتعالى– هو الصمد أي لا يحتاج إلى أحد –سبحانه وتعالى–، يُطعِم ولا يُطعَم، ويُصمَد إليه –سبحانه وتعالى–؛ لذلك لن يكتمل هذا الضعف الذي بداخلك –بوصفك إنسان– ولن تشعر بالراحة إلا بلجوئك إلى الله –جل وعلا–، فيوهم الشيطان ابن آدم بأنه يستطيع أن يسد هذا الجوف الذي داخلك بأشياء أخرى –غير اللجوء لله –عز وجل–.

فالشيطان يعلم أن بني آدم خائفون –لديهم جوف– ومحتاجون دائمًا لملء هذا الجوف؛ فيستغل ذلك ويوسوس للإنسان من مدخل قضية الخلد والملك –أكثر شيئين محببين للإنسان–، فالإنسان يخاف الموت وعندما يعيش يريد أن يعيش حياة المِلك، أكبر مدخلين للشيطان هما إيهامه لك بأنه خائف على حياتك، وحرصه على ألا تكون حياتك منغصة. فقال الشيطان لسيدنا آدم: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾[طه ١٢٠].

والخلد هو الطلب نفسه الذي طلبه الشيطان، فقال لله –عز وجل– في القرآن: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الأعراف ١٤]، لكن الله لم يأذن له بذلك، وقضى أن يكون إنظاره ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[٨] فقط؛ حتى يذوق الشيطان الموت.

فدخل الشيطان للإنسان من المدخلان نفسهما الذين يطمع هو –الشيطان– فيهما، وهما ﴿شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه ١٢٠]. استثار سؤال الشيطان – ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾– شيئًا في داخل سيدنا آدم، فهو لم يكن يعلم أنه يحب الخلد.

فكما قلنا يمكن أن تكون شهوة ما داخلك وأنت لا تعلم؛ لأنك لم توجد في بيئة تستثيرها فيك، فعندما تنظر إلى مشهد حرام أو توضع في موقف ما يستثيرها ويخرجها تظهر تلك الشهوة. مثلًا: طوال عمرك تعتقد أن هدفك ليس المال وأنه لا يغريك، وأنك من الممكن أن تتأثر بأي شيء إلا الأموال! لكن في الحقيقة أنت لم تجرب نفسك أمام الأموال الطائلة، ولم تختبر فيها. متى نحكم بأن الأموال لا تغريك؟ عندما تُوضع أمامك أموال طائلة وتثبت، وقتها نقول بأن الأموال لا تغريك. فيأتي شخص مغمور يقول: "أنا أتعجب مما تفعل المناصب والشهرة بالإنسان، وأتعجب من أولئك الذين يضلون عندما يشتهرون"، ثم تجده عندما يعجب خمسة أشخاص بمنشور له يتبدل حاله، إذًا هو لم يجرب فقط بريق الشهرة. فأحيانًا لا يتوقع الإنسان أن هذه نقطة ضعف لديه، فيستثير الشيطان تلك الشهوة داخله.

فعندما سمع سيدنا آدم كلمات الشيطان وزين له –الشيطان– الأمر، "شجرة الخلد! أي أني لن أموت أبدًا! وسيكون لي مُلك دائم! أكلة واحدة فقط من الشجرة ثم أتوب بعدها". لم تكن تلك التساؤلات بداخلك من الأساس، –على سبيل المثال: – تذهب إلى الجامعة كل يوم، ثم تعود منها فتنام، ثم تستيقظ وتذاكر، تذهب وتعود وهكذا، لكن في يوم أوقع الشيطان نظرك على شخص ما؛ مما دفعك للتفكير وإثارة تساؤلات ما داخلك، فجلس يحدثك عن معصية ما أو عن رحلة ما بها محرمات، لم يكن في ذهنك هذا كله، قرأت إعلان عن رحلة لمكان ما، لكن بها معاص، وأنت لم يكن في ذهنك السفر في رحلات أو غيره، لكن تم استثارة ذلك داخلك. تجلس وحيدًا وتفكر:

أأذهب أم لا؟ ماذا سيحدث إن مِت هناك؟

[٨] هذه الآية ذكرت في [الحجر ٣٨] و [ص ٨١].

لكن من الممكن ألا تموت هناك!

ماذا إن مت قبل أن أتوب؟

لكن من الممكن أن تتوب، فإن لم تذهب تكون بذلك قد أضعت عليك فرصة السفر!

وتدخل في نقاشات مع نفسك لم تكن داخلك في الأصل!

فالشيطان يقوم بشيئين هما:

١- التزيين وذلك عن طريق تسمية الأشياء -الذنوب- بأسماء محببة للنفس.

٢- واستثارة الدوافع التي بداخلك؛ ليستثيرك للوقوع في الذنب.

قبل أن يُخبرك الشيطان بفعل شيء ما يحوله -هذا الشيء- لأمنية لديك، وهذا أحد معاني قول الله -عز وجل-، وإن اختلف اللغوين في هذا المعنى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾[محمد ٢٥]،

- قال بعضهم أن سوَّل تعني سهل، أي جعل المعصية سهلة.
- وقال آخرون إن سوّل أي جعل المعصية سؤل الإنسان وطموحه وأمنيته.

يقول تعالى: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء ١٢٠]، ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَءَامُرَنَّهُمۡ﴾[النساء ١١٩]، أي قبل أن يأمرك الشيطان، يجعل المعصية أمنيَّتك. يقول تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[البقرة ٢٦٨]، أي أن الشيطان يستغل المشاعر قبل إعطاء أوامر؛ لتسهيل القيام بها. لذلك من المفترض أن يفعل الداعية ذلك أيضًا، فيغير مشاعر الإنسان تجاه الله وتجاه الجنة وتجاه النار قبل أن يعطي الأوامر والنواهي.

يركز الشيطان على المشاعر، فيجعل المعصية تتحول إلى حُلْم وإلى أمنية وإلى طموح وإلى سؤل لديك، ثم يقول لك بعد ذلك: "تلك الأمنية سهلة جدًا، ها هو طريقها". إذًا الشيطان يوسوس عن طريق التزيين للذنب واستثارة دوافعك تجاهه بطريقة غير مباشرة.

كما في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾[طه ١٢٠]، فيجعل سيدنا آدم -عليه السلام- يفكر "كيف؟ وأين؟ لا أريد أن أعرف! حسنًا، قل لي!" ويدخل في تساؤلات مع نفسه.

كمثل من يخبرك: "عندي وظيفة لك راتبها عشرة آلاف دولار شهريًا!"

فتقول له: "قُل!"

فيقول لك: "انتظر، لم أنتهِ من العروض بعد! سيسلمُونك سَيّارة، تكون مِلكًا لك".

هو يتكلم، وأنت تَحلُم، وتتخيل نفسك وأنت تعُد العشرة آلاف دولار، وتظل تحلُم بالسيارة وأنت تلمس إطاراتها بحذائك، وتخرج يدك من نافذتها، فتقول: "قُل يا هذا ما تلك الوظيفة!"

يقول: "وهل تراني انتهيتُ بعد من العروض؟"

فيتركك هذا الشخص تحلم وتتمنى، وبعدها يخبرك: "الأمرُ بسيطٌ للغاية، ستعمل في تجارة الخمر".

فتصعق من هذا، فيخبرك -ردًا على ذهولك-: "ما مشكلتك يا هذا؟ ألا تريد تلك الوظيفة؟ حسنًا، لا بأس إذًا انس موضوع السيارة."

فيكون ردك: "ألا يوجد شيءٌ آخَر غير الخمور؟"

ويظل يستغل عاطفتك وشهواتك؛ من أجل أن تسقُط، فيجعل قوة الممانعة الّتي داخلك تنهار.

دخل الشيطان من هذا المدخل مع سيدنا آدم -عليه السلام-، كما في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾[طه ١٢٠].

وبعد دخوله من هذا المدخل وتمكنه واستثارة شهوتا الخلد والملك في نفسه -كما في سورة طه-، دخل على الأمر المباشر -كما في سورة الأعراف. فقال الشيطان لسيدنا آدم -عليه السلام-: أريد أن أخبرك بشيء كما في قوله تعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾[الأعراف ٢٠]. الآية في سورة الأعراف هي بداية لنوعٌ من الصِدام، لم يبدأ الشيطان بهذا الصدام؛ فمن أهم أغراض الشيطان أن يجعلك تعترض على أمرِ الله لا أن تعصيه فقط. فهدف الشيطان النهائي هو أن تعترض على الشرع وعلى القدر؛ لذلك (لو) التي فيها اعتراض على القدر (تفتح عمل الشيطان)[٩] كما قال رسول الله -صلى عليه وسلم-. حيث يريد منك الشيطان أن تقف أمام أوامر الله

[٩] [عن أبي هريرة:] الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ باللهِ وَلا تَعْجَزْ، وإِنْ أَصابَكَ شيءٌ، فلا تَقُلْ لو أَنِّي فَعَلْتُ كانَ كَذا وَكَذا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَما شاءَ فَعَلَ، فإِنَّ لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطانِ.

وتعترض كما وقف هو، حيث اعترض وقال لله -عز وجل-: "لماذا أسجد؟" لم يكتفِ بعدم السجود فقط، بل اعترض قائلًا: "أنا خيرٌ منه"، إذًا هو يريدك أن تعترض.

- لكن كيف يجعلك تعترض؟ كيف يستثير بداخلك دوافع الاعتراض؟

الإجابة بأن يصور لك أن أوامر الله فيها نوع من التقيد لحريتك ولطموحاتك ولدنياك ولأمانيك، يصور لك أنك مسجون وأن هذه الطاعة سجن، يصور لك أنك تعيش في كرب بسبب الطاعة، وأنك لو قررت أن تعصي الله ستجد الحياة كلها مفتوحة أمامك، الشيطان يلعب في هذه المنطقة.

انظر ماذا قال هذا الخبيث اللعين لسيدنا آدم -عليه السلام-: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[الأعراف ٢٠]، قال إبليس ذلك عندما تأكد أن شهوة الخلد والملك قد تمكنت من القلب. يوجد هنا إشارة لغوية جميلة جدًا، فلنرجع إلى مدلولات أسماء الإشارة في الآيات، قال بعض العلماء أن في قوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [هذه] للدلالة على الشيء القريب، ما الّذي جعلكما تقتربان من الشجرة؟ ألم يقل لهما الله -عز وجل-: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[الأعراف ١٩]، إذًا لماذا يحدث هذا الحوار -مع الشيطان- بجانب الشجرة؟

وسنجد في الآيات التي تلي هذه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾[الأعراف ٢٢]، اسم الإشارة [تلك] للإشارة للبعيد؛ أي أنهما حين أكلا من الشجرة وظهرت السوءة أخذا يركضان بعيدًا عنها، لكن بعد فوات الأوان.

يتم هذا الحوار -مع الشيطان- بجوار الشجرة: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الأعراف ٢٠]، أي أنهما الآن واقفان بجانب الشجرة، لماذا يقفان بجوارها!

((وسوسة الشيطان مع الاقتراب من موضع المعاصي تُسهِّل الوقوع))

﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ يقول له: يريدك الله -عز وجل- ألا تكون ملكًا، عندما نهاك ربك عن هذه الشجرة؛ كان ذلك النهي لمنعك من أن تصبح مَلكًا مُخَلدًا.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٦٦٤ • [صحيح]

يضعك الشيطان في مواجهة أوامر الله -عز وجل-، وهذا ما يفعلونه في الطريقة المعاصرة لتبغيض الناس في الشرع، يقولون: "هذا الشرع هو الّذي سبب لنا الفقر، وسبب لنا كذا..، وسبب لنا التخلف، وسبب لنا التأخر...". وكأننا لو تخلصنا من الشرع، سينصلح كل شيء في حياتنا!

يقول الشيطان لآدم -عليه السلام-: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، وكلامه هذا متناقض، فكيف يكون {ربكما} أي الذي يربيكما بنعمه وينهاكما عن شيء يكون فيه مصلحتكما؟! ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا﴾، واستخدم في كلامه صيغة الحصر والقصر، فيكون معنى كلامه أن الغرض الوحيد من النهي عن الشجرة هو ألا تكونا أفضل مما أنتما عليه.

﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ القراءة المتواترة: ﴿مَلَكَيْنِ﴾، القراءة خارج المتواتر: ﴿مَلِكَيْنِ﴾، أي الملك -كما في سورة طه-.

كأن أيضاً من الدوافع التي من الممكن تستثار داخل سيدنا آدم -عليه السلام- أنه -عليه السلام- كان ينظر إلى الملائكة، دائمًا من أسباب الوقوع في المعصية النظر إلى الغير. فضَّلَك الله -عز وجل-، وعلَمَك الأسماء كلها، وأَسجَدَ لك الملائكة، لكن بالرغم من هذا وجد الملائكة تمتلك أشياء ليست عنده، مثلاً: كأنها تطير أو تعبد الله بطريقة معينة -مختلفة عنه-، فأراد أن يكون مثلهم. لماذا تنظر إلى غيرك؟!!

أحيانًا يعطيك الله -عز وجل- نعمة معينة، ارضَ بهذه النعمة، اجتهد فيها، تَعَبَّد إلى الله بها، لا تنظر إلى غيرك. أحيانًا من أسباب الوقوع أنك مشغول بغيرك، أنت وُفِّقت في العلم أو في الدعوة أو في أي ثغر من ثغور الدين، ولكي يصرفك الشيطان عن ذلك يجعلك تنظر إلى غيرك، وفي النهاية لا تجمع بين فعلك ولا فعل غيرك.

أحيانًا يكون هناك فارق دقيق -وهذا يحتاج إلى لقاء آخر، ومن الممكن أن ترجعوا لمقطع بعنوان: "الفارق بين تحقيق العبودية وبين تحقيق الإنجاز" - هناك فارق دقيق بين علو الهمة والطمع، يريد منك الشيطان أن تكون طمَّاعًا، ثم تسقط في النهاية.

فقد جاء الشيطان لسيدنا آدم وقال له: يمكنك أن تكون مَلَكًا مخلدًا أو ملِكًا، هذا كله من الشجرة فقط، وتلك الشجرة نهيت أنت عنها؛ وذلك النهي كي لا تكون كذلك -مَلَكًا أو مَلِكًا أو مخلدًا-.

﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، ولا بد أن يدخل الدين في الأمر! وقال لهما الشيطان: أقسم بالله العظيم أني أقول الحقيقة -كما في قوله تعالى: - ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف ٢١].

يقسم الشيطان بالله -في الآية-، وتشعر دائمًا أن كلام الشيطان متناقض، لكنه يوافق هوى النفس، يقول له: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[الأعراف ٢٠] ثم يقسم بالرب بعدها! وفي قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ قيل إن صيغة المفاعلة هذه -قاسم- من المفترض أن تأتي للمشاركة، مثل: تقاتل فلان وفلان، أو تصارع فلان وفلان، أي أن الشخصين يفعلان نفس الفعل. فقالوا: كيف قاسمهما؟

- قال بعضهم: "طلبا هما منه القسم".
- وقال بعضهم: "أحيانًا تأتي هذه الصيغة -صيغة المفاعلة- للدلالة على الاجتهاد في الفعل". فحين نقول (جاهد نفسه) نقصد أنه بالغ في الجهد ودفع وأعطى ما في وسعه كله؛ حتى يجاهد نفسه. أو أن هناك مقاومة تجاه الفعل، فيظل الشيطان يقسم لهما، ويستمران هما في المقاومة، يقسم هو، ويقاومان هما...

يقول تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف ٢١]، يقسم الشيطان ويؤكد أنه مجرد ناصح لهما، لا يريد أي شيء لنفسه، وأنه مجرد فاعل خير. وكما قلت لكم لا يُظهر الشيطان -سواء كان من الإنس أو من الجن- أنه يريد شيئًا، فيظهر دائمًا بصورة الناصح. لا تريدان أن تأكلا من الشجرة، لكما مطلق الحرية في ذلك، ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[الأعراف ٢٢] انظروا كيف تسير الأمور في تعاقب، يقول تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ﴾[الأعراف ٢٠] ثم ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ ثم ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾[الأعراف ٢٢].

يقول تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، قال العلماء [دلاهما] لها معنيين:

- القول الأشهر -الَّذي عليه الجماهير- إن [دلاهما] تعني أوقعهما.
- والمعنى الثاني هو أنه جرَّأهما على المعصية. أحيانًا يأتي الفعل [دل] للدلالة على أن الإنسان جريء على الشيء.

وهذا الخلاف قائم على حسب جذر الكلمة، لكن سنتناول الأصل الأشهر للفعل وهو (دَلَّ الدلو)، ويُقصد به حين يريد أحدهم ماءً من بئر ويظن واهمًا أن في ذلك البئر ماءً، فينزل الدلو داخل البئر خطوة بخطوة ثم لا يجد شيئًا. ويُضرب هذا المثل لمن تتبع أمرًا شيئًا فشيئًا فلم يجد ما يريده. فحين تتبع الفريسة الطُعم، وتظل أنت تسحب ذلك الطعم شيئًا فشيئًا إلى أن تسقط الفريسة في الشبكة، هكذا أنت دليت هذه الفريسة، أي أغريتها.

يقول بعضهم إن من معاني الغرور أن بعض الحيوانات تختبئ بالليل وتظهر بالنهار؛ لأنها لا ترى من يمكنه افتراسها من الأعداء في الليل، فأحيانًا في ليلة مقمرة تظن تلك الحيوانات أن النهار أتى؛ فتظهر هذه الفريسة تظهر معتقدة أن النهار أتى، فيهجم عليها العدو ويأكلها، فيُقال قد غُرَّ بها.

اعتقادك في شيء ما قيمة أكثر من قيمته أو أدنى منها –أيًا كان هذا الاعتقاد بالزيادة أو النقصان– هذا الاعتقاد نوعٌ من أنواع الغرور. فاعتقد –آدم عليه السلام وزوجه– أن في الشجرة شيء فوق قيمتها، وكانت تلك القيمة التي اعتقداها أكثر من قيمتها الحقيقية. فقد تعتقد في المعصية أكثر من قيمتها، أو تعتقد أن المعصية قد تسعدك، أو تعتقد أن هذا –الشيء المحرم– قد يجلب لك مالًا، وتلك الاعتقادات كلها اعتقادات واهِمة!

ويوسوس لك الشيطان خطوة بخطوة، مثل الشخص الذي تضع له قدر من المال على الأرض، فينحني ليأخذه، فتسحبها أنت نحوك، فيخطو نحو المال خطوة وينحني ليأخذه، فتسحبها أنت نحوك، تلك هي التَدلِية، تكون خطوة بخطوة. فإذا قالا شبهة –آدم وزوجه– للشيطان، فيرد عليهما، يصرا على الامتناع –عن الانسياق له–، فيدخل لهما من مدخل آخر، واستمر ذلك لفترة، فيوسوس لهما شيئًا فشيئًا.

يقول تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾، قال بعضهم إن الباء تدل على الملابسة والمصاحبة، طوال هذه الوسوسة يصاحبهما الغرور أو يستعمل معهما الغرور.

يقول تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾، أي لازمهما الشيطان مدة طويلة، فالشيطان طويل البال للغاية. تخيل أن الشيطان من الممكن أن يلازم وسوسة شخص ما مدة الخمس سنوات؛ لكي يُوقِعه في معصية، ولا مشكلة لديه في ذلك –طول المدة–. ستتعجب من ذلك وتقول: خمس سنوات لكي يوقعه في معصية! نعم، قد يفعل ذلك؛ لأن المعصية الأولى ستستغرق من الشيطان خمس سنوات، أما المعصية الثانية فستستغرق منه خمس دقائق، والثالثة لن تستغرق ثوان؛ فقد صار ذلك الشخص أسِيرًا عند الشيطان!

يعتمد الشيطان على سيطرته الكاملة على الإنسان ووضعه اللِجام على حَنَك الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء ٦٢]، ويعتمد على أن يظهر السَوءة -التي داخلك-، ويعتمد على أن يغير ما داخلك، ليس فقط أن ترتكب معصية عابرة.

يقول تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[الأعراف ٢١]، ظلَّ الشيطان يدرس سيدنا آدم -عليه السلام- وَيطِيفُ به، ويقرر ماذا سيفعل معه، ويدرس المداخل الممكنة للوسوسة، كالمدخل غير المباشر والمدخل المباشر، ويستثير الدوافع، ويضع سيدنا آدم -عليه السلام- ضد أمر الرحمن بشكل مباشر، ويجعله في حالة مضادة لأمر الملك -سبحانه وتعالى-؛ حتى يُظهر بداخلك الاعتراض.

بعد هذا كله وبعد هذه المحاولات كلها نجح الشيطان، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي لم يبتلعا ما ذاقاه بعد، ولم يتمتعا بالمعصية، وهذه المعاملة هي معاملة من أراد الله به خيراً، فلا يتركه يتمتع بالمعصية يقول تعالى: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران ١٥٢].

فالمعصية تذهب بكل ما تحب -إن كنت ممن يريد الله بهم خيراً-، وهناك أُناس تُعَامل معاملة الاستدراج، فيتركه الله -عز وجل- يتذوَّق ويأكل ويشبع بل ويدخر، لا يُعجِّل له بالعقوبة، وقد تكون العقوبة معنوية، بأن يزداد بعدًا عن الله -معاذ الله-.

فهنا ﴿فَلَمَّا﴾أي بمجرد الذوق، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾[الأعراف ٢٢].

نكمل بإذن الله -عزّ وجلّ- بعد الأذان.

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد -صلى الله عليه وسلم-.

توقفنا عند قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾، أي بمجرد أن ذاقا من الشجرة بدت لهما سوآتهما، وقلنا إن هذا من رحمة الله -عز وجل- بالعبد، أن يُبغّض له المعصية. فالمعصية لها لذة في أولها، وينتهي إحساس الجرأة واللذة الخاص بالمعصية - بالنسبة للمؤمن- بمجرد اقتراف المعصية، ثم يشعر بندم وضيق وألم في صدره، ويشعر -كما سنسمع الآن نداء الرب سبحانه وتعالى لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ - يشعر بالعتاب؛ فنفسه نفسٌ لوامة. هذا الشعور قد يضمحل مع تكرار الأكل من الشجرة -الذنب-، فمع تكرار المعصية قد يُعاقَب الإنسان -معاذ الله- بالاستدراج.

وسيأتي في السورة أُناس عاملهم الله -عزَّ وجل- بالاستدراج، حيث عاملهم ربنا -سبحانه وتعالى بالبأساء- فلم يرتدعوا، فأعطاهم السراء، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي نموا وكثرت أموالهم، ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾[الأعراف ٩٥] أي أن هذا -التقلب في الأحوال- أمر عادي ولا علاقة لها بالعقوبات الربانية، وهنا تكون الفتنة.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾[الأعراف ٢٢]، وظهر هنا سواء السَوءة الحسية -على قول الجمهور- أو المعنوية -على قول آخرين. والراجح والمقصود -في الآية- غالبًا هي السوءة الحسية، لكن إسقاط المعنى علينا نحن يكون المقصود السوءة المعنوية. يقول تعالى: ﴿بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ حين ظهرت السَوءة ظهر الشعور الفطري الموجود داخل الأنسان بأنه يريد أن يستر نفسه، فالستر شعور فطري داخل الإنسان. فالعجيب كيف يصفون التقدم بالتعري، في حين أن التعري من أخلاق الحيوانات، فالحيوانات لا ترتدي الملابس في الشارع. فالتعري تنزل عن تكريم بني آدم، فكيف يرتضي الإنسان لنفسه هذا؟

الستر من فطرة الانسان، رغم أنه لم يأته أمر بالستر فلم يقل الله -عز وجل- لهما أن يسترا نفسيهما، بل أن النهي الذي جاءهما هو ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[الأعراف ١٩]. إذًا فهذا الشعور -بالستر- شعورٌ فطري مفطور عليه الإنسان، سواء ستر السَوءة الحسية أو ستر المعصية -السوءة المعنوية-، فلا يجاهر -بمعصيته- ولا يتكبر. فالإنسان يتعجب لمن يفعل المعصية أمام الناس ولم يستحي، أو المرأة التي تفعل المعصية أمام الناس ولا تستحيي، يتعجب المرء من هذا الأمر المناقض لفطرته. يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾[الأعراف ٢٢]، أي بمجرد الذوق بدت السَوءة وظهرت. يقول تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾، أي أنهما يخصفان مباشرة -بعدما بدت السوءة-، والخصف هو تجميع الورق فوق بعضه؛ حتى يسترا نفسيهما.

يقول تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾، يقول ابن عاشور هنا معنًى لطيفًا عن دلالة تأخر النداء -من الله تعالى-، فلم يقل الله -عز وجل-: "فلما ذاقا الشجرة نادهما ربهما"، بل تأخر النداء إلى أن ظهرت السوءة، وشعرا بضرر المعصية، ثم انطلقا يبحثان عن ستر المعصية، فجاء النداء في هذه اللحظة تحديدًا؛ حتى يكون أمكن للنفس. عندما تشعر بخطئك، وتشعر بأنك ألحقت الضرر بنفسك جراء تلك المعصية، فيأتيك العتاب في هذه اللحظة، لكن لو لم تشعر بضرر المعصية بعد، وأتاك

العتاب فلن تشعر بضرر المعصية. لكن في هذه اللحظة بعد أن ظهرت وبدت السوءة، فينطلقان في الجنة يبحثان عن ورق لكي يستترا به، جاء العتاب في هذه اللحظة؛ فيتمكن العتاب، ويعطي أثره.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾، العتاب في الآية يذيب القلب المؤمن، حين تتذكر معصيتك وأنت تقرأ هذه الآيات وتتذكر حينما أمرك الله -عز وجل- بألا تفعل هذا، وحذرك منه، وأرسل لك إنذارًا، ومنعك عنها، وحال بينك وبينها، ثم تصر وتفعلها، ثم تشعر بالضرر في دينك ودنياك، وتجلس مع نفسك، تذكر هذا العتاب: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾.

ألم أخبركما أن تبتعدوا عنها؟ آلآن تبتعدان عن الشجرة؟ آلآن؟ أبعد المعصية؟ أبعد أن ظهرت السوءات؟ ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾؟ ألم أقل لكما أن هذا الفعل خاطئ؟ ، فيتذكر الإنسان هذه اللحظات -لسيدنا آدم وزوجه- قبل أن يقع في المعصية.

أصعب شيء على من ذاق حلاوة القرب -من الله- أن يذوق مرارة البعد، أصعب شيء على النفس التي ذاقت حلاوة القرب أن تذوق هذه الحالة -مرارة البعد-، وهذا أصعب من فقدان أي شيء دنيوي. كل شخص منا يربيه الله -عز وجل- أن يكره المعصية بطريقة، هو الرب -سبحانه وتعالي-، مثل: ابنك الذي تحاول أن تخوفه من شيء ما فتقول له: "هذه ستحرقك، وهذه ستجرحك".

فيربي الله -سبحانه وتعالى- عباده، أحدهم كلما فعل معصية تجده يرسب -في الاختبارات-، وآخر -كلما فعل معصية- تحدث له مشكلة في سيارته، وآخر تحدث له مشكلة في بيته، وهناك شخص لا ينتظر أن يحصل له ذلك، بل حين يفعل معصية يفقد لذة المناجاة، أو يفقد قيام الليل، أو يفقد صلاة الفجر.

فعندما يأتي الشيطان ويقول للإنسان أفعل تلك المعصية؛ تجد الشخص الآخر يتذكر سيارته المصدومة، أو يتذكر رئيسه في العمل الذي ينفعل عليه، فهو يربط ما بين هذا وذاك. لكن هناك من يكون رد فعله الطبيعي مباشرة (reflex) لما يحدث داخله، فهو يتذكر مرارة البعد عن الله -جل وعلى-، فلا يستطيع تحمل اقتراف هذا الذنب مجددًا، فيتذكر المرة الماضية التي أذنب فيها وعوقب بالإحساس بفجوة داخله، ويتذكر كم تعِب جراء تلك الفجوة، وأنه لن يستطيع الرجوع لهذا الموقف مرة ثانية. لذلك كان النبي -

صلى الله عليه وسلم- في أشد لحظات القرب من الله تعالى -في السجود- يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"[١٠].

حينما تذوق لذة الطاعة تتمني الثبات على تلك الحال إلى الأبد، فتتمنى أن تظل هكذا وتظل خائفًا من فقدانه، من يذوق حلاوة القرب يتألم ويخشى مرارة البعد. فتأتي هذه الآية لتذكرك: "ابتعد عن المعصية؛ حتى لا تذوق هذه المرارة، حتى لا تشعر بهذه الغصة"، فمرارة البعد مؤلمة على القلب المؤمن.

وكم من إنسان يقول فعلت معصية ولم أعاقب، وهو لا يشعر بالعقوبة؛ فلا يشعر بها إلا القلب المؤمن، فالقلب الذي لا يشعر بالعقوبة هو قلب فقد الإحساس بأعظم الاشياء؛ وهي القرب من الله، فلا يعلم أنه معاقب -معاذ الله-. يرى أن سيارته جيدة وعمله بخير وبيته بخير وماله بخير، فلا يشعر بأن ثمة مشكلة، وهذا من الاستدراج.

تخيل معي لو أن سيدنا آدم -عليه السلام- حين ذاق من الشجرة لم يحصل له شيء، فلم يكن هناك عقاب ولم تظهر السوءة ولم يحصل أي تغيير ظاهري، بل بالعكس، تخيل أنهما حين أكلا من الشجرة انتقلا إلى مكان أفضل في الجنة، تخيل لو كان هذا ما حصل هنا.

من الممكن أن يكون هذا من البلاء، أن تفعل المعصية فتتحسن دنياك -وهذا من البلاء-، وهذا ما حدث مع كثير من الدول والأمم في الوقت المعاصر. حين ثاروا على الدين في الغرب وثاروا على الكنيسة -كان دينًا باطلًا من الأساس- تقدموا؛ فنشأت فكرة الإلحاد، فظنوا أن الدين كان سبب تأخرهم.

في البداية نشأت فكرة العلمانية، بأن نحاصر الدين داخل دور العبادة، طالما يسبب لنا هذا الدين نوعًا من أنواع التخلف الدنيوي، سنحاصره داخل دور العبادة، ودائمًا يحدث أنه كلما تراجع الدين كلما تقدم الباطل. فعندما حاصروا الدين في الكنيسة قرروا عدم ترك الدين من الأصل وقرروا هد الكنيسة على الدين؛ فظهر الإلحاد. لماذا ظهر الإلحاد؟ ومتي حصلت الفتنة؟

---

[١٠] [عن شهر بن حوشب:] قُلتُ لأمِّ سلمةَ: يا أمَّ المؤمنينَ ما كانَ أكْثرُ دعاءِ رسولِ اللَّهِ ﷺ إذا كانَ عندَكِ؟ قالَت: كانَ أكْثرُ دعائِهِ: يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ قالَت: فقُلتُ: يا رسولَ اللَّهِ ما أكثرُ دعاءَكَ يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ؟ قالَ: يا أمَّ سلمةَ إنَّهُ ليسَ آدميٌّ إلَّا وقلبُهُ بينَ أصبُعَيْنِ من أصابعِ اللَّهِ، فمَن شاءَ أقامَ، ومن شاءَ أزاغَ. فتلا معاذٌ رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنا
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترمذي ٣٥٢٢ • صحيح

ظهر الإلحاد وحصلت الفتنة بتقدمهم بعد إزاحة الدين، فتتساءل كيف؟ الإجابة هي أن الدين كان باطلًا في الأصل، وهذا أيضًا ما حدث في أواخر خلافة الدولة العثمانية.

فعندما غيروا في دين الله وبدلوا فيه وضيعوا منه أجزاء وحدثت ثورة على الدين في تركيا قام بها أتاتورك – عليه من الله ما يستحق– ونشر العلمانية وأزاح الخلافة، فحصل نوعًا من أنواع التقدم الدنيوي، فأحسوا أن الدين كان مقيدًا لهم، لكنه لم يقيدهم. تقييد الدين المزعوم ما هو إلا معنى الآية: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[الأعراف ٢٠].

وهذا الشعور الذي يريد أن يبثه الشيطان في نفوس الناس، أن الدينَ نوعٌ من التقييد –القيد–، فيصور الشيطان للإنسان أن الداعيةَ أسدٌ يريد أن يفترسه –كما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر ٥٠-٥١]، أي فرت من أسد أو صياد–. يريد الشيطان أن يصور الداعية أنه يريد أن يصطاد الإنسان ويضعه في محبس، فيصور له الداعية في منظر مرعب كهذا. إذًا يريد الشيطان أن يخيفك من الدين؛ فيصور لك أن الدين قيد أو حبس.

تحدث الفتنة حينما تأتي المعصية بمنفعة دنيوية، هنا تكمن الفتنة ويكون الاستدراج.

وكما قلنا سيأتي ذكر هذا –نسأل الله أن يتم علينا هذه السورة–، سيأتي لنا في منتصف السورة أن هناك أناس حصل معهم ذلك حين لم تردهم البأساء عن عصيانهم.

وهذا يحصل معك، أنك تعصي الله –عز وجل– فيعاقبك بأن يرسل لك إنذار أو عقوبة، فتستمر في المعصية، إذًا يكون الانتقال للمرحلة التي تليها كما في قوله تعالى –في سورة الأنعام–: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[الأنعام ٤٤]، فيعطيه الله –عز وجل– الدنيا وهو في معصية. (إذا رأيت الله –عز وجل– يعطي العبد وهو مقيم على معاصيه فاعلم أن ذلك منه استدراج)[١١] كما روي عن النبي –صلى الله عليه وسلم–.

[١١] [عن عقبة بن عامر:] إذا رأيتَ اللهَ تعالى يُعطي العبدَ من الدنيا ما يُحبُّ، و هو مقيمٌ على معاصِيه؛ فإنَّما ذلك منه استدراجٌ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٥٦١ • صحيح

إذًا من رحمة الله –عز وجل– هنا أنه بمجرد ذوق المعصية ظهرت السوءة، يقول تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّ مُّبِين﴾[الأعراف ٢٢]، أي أن الله –عز وجل– أخبرهما بأمرين، وهما أن الشيطان لكما عدو، وألا تقربا من الشجرة.

فأنتما لم تقتربا من الشجرة فحسب، بل استمعتما إلى الشيطان! ألم أقل لكما أن الشيطان عدو؟ ألم آمركما بأن تتخذاه عدوًا! يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّ مُّبِين﴾.

سنتناول سريعًا قضية لغوية في الآية، يقول تعالى: ﴿تِلْكُمَا﴾، (تلك) اسم إشارة للشيء البعيد، إذا أردت أن تشير إلى شيء مؤنث بعيد تستعمل (تلك). أما (كما) –في ﴿تِلْكُمَا﴾– هي كاف الخطاب للمثنى؛ إذا كنت تخاطب شخصين تقول: "تلكما". إن شاء الله من الممكن أن نعيد شرح الموضوع –أسماء الإشارة والضمائر في القرآن– بتفصيل أكثر في لقاء آخر؛ لضيق الوقت.

يقول تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف ٢٣]. هناك فارق رهيب بين ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾[الأعراف ١٦] وبين ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[الأعراف ٢٣]. حين وقع إبليس في المعصية قال: "أنت يا رب أغويتني"، ولم يعترف بخطئه، لكن آدم –عليه السلام– اعترف بخطئه حين عصى ربه.

لذلك يقال عن شيخ الإسلام ابن تيمية –أو غيره– أنه قال: "الذي يسقط في المعصية ثم يتهم الرب فيه شعبة من أخلاق إبليس، أما الذي يسقط في المعصية ويتهم نفسه ويتوب، يتخلق بأخلاق أبينا آدم في لحظات التوبة"، فانظر لحالك وإلى ماذا تفعل بعد المعصية.

هنا –في الآيات– آدم –عليه السلام– وزوجه هما المخطئان كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، وعلما أنهما ظلما أنفسيهما لأن الله –عز وجل– سبق وقال لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأعراف ١٩]. وحين وقعا في المعصية قالا: "يا رب! بالفعل صدقنا الله، وكذبنا عدو الله".

يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[الأعراف ٢٣]، شعور أنه ليس لك مخرج من شعورك بالذنب إلا من الله، حين يستقر هذا الشعور في قلبك يتوب الله عليك.

يقول تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فنحن ليس لنا مخرج إلا منك يا الله! "لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك"[١٢] -كما ورد في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم-، يقول تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾[التوبة ١١٨].

حينما تضيق عليك الأمور وتضيق عليك الأرض وتضيق عليك نفسك وتشعر أنه لا مخرج لك من هذا الضيق إلا من الله، هذا الشعور يجعلك تقبل على التوبة، بل ويستنزل التوبة، فتقول يا الله ليس لي أحد سواك! وهذه أخطر مرحلة في الذنب، مرحلة الضعف النفسي التي تحصل بعد الذنب، فبعد الذنب تكون في حالة من الضعف. إما أن تلجأ إليه -سبحانه وتعالى-، وإما أن تيأس وتقنط.

يأتي الشيطان إليك قبل ارتكابك للمعصية ويزينها -المعصية- لك. ويأتي إليك في أثناء قيامك بها فيجعلك لا تفكر في أي شيء وينسيك كل شيء متعلق بالتوبة واطلاع الله -عز وجل- عليك، وعلمه -سبحانه وتعالى- وقدرته.

ويأتي لك أيضًا بعد ارتكابك للمعصية، فهو لن يدعك وشأنك بل سيأتي لك بالطبع ويقول لك: "ما هذا الذي فعلت!"، فيكون لسان حالك: "أنت من حرضني على هذا الفعل!"، فيرد: "أتستجيب لي وأنا الشيطان!"، ويظل يلومك على فعلك هذا، وهذا أمر عجيب للغاية! فهو الشيطان وهو الذي يؤنبك!

فيقول: "ماذا هذا الذي فعلت؟"

فتفكر: "ماذا عليّ أن أفعل؟"

فيرد عليك: "ماذا تفعل؟ لقد انتهي الموضوع من الأساس! ليس هناك شيء يُفعل، لقد فشلت".

فتفكر: "سأتوب.."

فيرد عليك: "ليس لك توبة! اذهب وابحث عن معصية أخري؛ فلا جدوى منك، انتهى الأمر من الأساس."

[١٢] [عن البراء بن عازب:] إذا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وضُوءَكَ لِلصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ على شِقِّكَ الأيْمَنِ، وقُلْ: اللَّهُمَّ أسْلَمْتُ نَفْسِي إلَيْكَ، وفَوَّضْتُ أمْرِي إلَيْكَ، وألْجَأْتُ ظَهْرِي إلَيْكَ، رَهْبَةً ورَغْبَةً إلَيْكَ، لا مَلْجَأَ ولا مَنْجا مِنْكَ إلّا إلَيْكَ، آمَنْتُ بكِتابِكَ الذي أنْزَلْتَ، وبنَبِيِّكَ الذي أرْسَلْتَ، فإنْ مُتَّ مُتَّ على الفِطْرَةِ فاجْعَلْهُنَّ آخِرَ ما تَقُولُ فَقُلْتُ أسْتَذْكِرُهُنَّ: وبِرَسولِكَ الذي أرْسَلْتَ. قالَ: لا، وبنَبِيِّكَ الذي أرْسَلْتَ. البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٣١١ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠)، وأبو داود (٥٠٤٦)

فتفكر: "ألا يمكنني التوبة!"

فيرد عليك: "لا يمكنك ذلك، أنس الأمر".

فتفكر: "لكن أحد معارفي أذنب وتاب".

فيرد عليك: "ألم تعلم أنه –بعد توبته تلك– أذنب مرة أخرى!"

أخطر مرحلة هي لحظة الضعف التي تلي المعصية، فإياك أن تيأس من رحمة الله تعالى، وإياك أن تستسلم له. تحتاج في تلك اللحظات أن تقبل على الله مباشرةً كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران ١٣٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف ٢٠١]، أي أنهم تذكروا الله –عز وجل– على الفور.

طول الفترة بين المعصية والتوبة يقسّي القلب كما في قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الحديد ١٦]، حين تطول الفترة بين الوقوع في المعصية والتوبة يصبح الرجوع إلى الله تعالى أصعب ويجعل –طول الفترة هذا– القلب ييبس، فيحدث نوع من اليُبس وتزداد الطبقات على القلب. وهذا أحد معان قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة ١٩٥] فإياك أن تظن أنه لا يوجد أمل في التوبة، فيأتي الشيطان لك في تلك اللحظة تحديدًا، ويقنطك من الله تعالى، بل يجب عليك أن تلجأ مباشرة إلى الله.

يقول تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[الأعراف ٢٤-٢٥].

كنت أرجو أن نكمل حتى الآية الخامسة والعشرين، لكننا بذلك سنطيل؛ فإن شاء الله نكمل هاتين الآيتين المرة القادمة.

أسأل الله –عز وجل– أن يصرف عنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللهم استعلمنا ولا تستبدلنا، اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك، اللهم ارزقنا العمل بالقرآن وتلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار...أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.